«شي فاشل ـ ١».. «شي فاشل ـ ٢»

03374593

محمد غندور

العام ١٩٨٣: بيروت مشتعلة، صمت يلف الامكنة، الرصاص والجثث تتجول في الشوارع، مسلحون يبحثون عن شيء يُقتل، قناصون متربصون في ابراجهم العالية، قطط تعبر الشارع من دون خوف، اجواء الحرب والاقتتال الطائفي وحدها السائدة. في ذلك العام، قدم زياد الرحباني مسرحيته «شي فاشل»، بعد سلسلة مسرحيات ناجحة تنتقد الوضع آنذاك، وكان لديه ما يقوله. حاول في مسرحيته ان يحدد من هو الغريب في لبنان وان يجمع شخصيات المجتمع اللبناني على مختلف اطيافه ويظهر مدى عمق الهوة الطائفية بينهم فسمعنا في عرضه، المسيحي يتصارع مع المسلم من اجل رئاسة فرقة رقص، والشرقية والغربية المنطقتان اللتان صنفتا الناس ورسمتا في اذهانهم، العداوة، وليس اي عداوة، بل الكره القاتل. زياد قال كلمته من اثنتين وعشرين سنة ولكننا لم نسمع ولم نحلل بل استمتعنا فقط بالقفلات الساخرة والحبكة الدرامية الطريفة للعرض من دون ان نسمح لعقولنا ان ترتقي للقراءة بين السطور.

العام ٢٠٠٦: بيروت مازالت مشتعلة. مازلنا نشتم رائحة الاغتيالات، لا رصاص بل متفجرات، واستهداف لأعلام الوطن. حرب خفية تدور في الكواليس، اسلحتها خطابات وشتائم سوريالية. ما زلنا لا نعرف من هو الغريب، لم نحدده حتى الآن، لم نتفق عليه، وطاولة الحوار التي لم تتوافق الا على القليل، متناسية ان وطننا يعيش في غرفة الانعاش. بعد اثنتين وعشرين سنة ما زالت «شي فاشل» تصلح، ومقاسها يناسب الوضع اللبناني الحالي. صحيح ان بيروت تطوَّرت وشُيِّدت فيها المباني الفخمة، والجسور واشارات السير، ووُلد وسط بيروت التجاري، وعادت مدينتنا لتتلألأ كنجمة، الا ان شيئا لم يتغير في السياسة والعقلية والذهنية اللبنانية، بل انقسم البلد من جديد الى معسكرين وكرّس معطى تقارن الشرقية والغربية، بـ٨ و١٤ آذار. لذلك ارتأى مجموعة من الشباب الهواة إعادة تمثيل المسرحية، وتقديمها على خشبة مسرح الجامعة الاميركية، التي احتضنت الحدث. وكان العرض نسخة طبق الاصل عن مسرحية زياد. وبرغم ان بيروت تشهد انتعاشة مسرحية لكثرة العروضات هذه الفترة، الا ان الجمهور بمختلف اعماره وطوائفه زحف باتجاه الجامعة، ونفذت كل الحجوزات، حتى الخامس عشر من الشهر الجاري، ويعكس هذا النجاح في بيع البطاقات تعطش الجمهور لسماع ما يشبهه. قدم العمل فرقة ايحاء للفن المسرحي وهي فرقة هاوية، اسسها اياد وهبي وقام باعادة اخراج معظم مسرحيات الرحباني.

بداية الماضي

الكل في مكانه، احاديث تدور بين الحشود، صوت انثوي يطلب اطفاء الاجهزة الخلوية، صمت، سكوت. اسدلت الستارة الحمراء. خلفية خضراء، كوخ خشبي بنافذة ضيقة، غابة خضراء، جسر وقناطر وجرّة. طاولة خشبية وهاتف ونور يتكلم. تلك هي الصورة التي لم نعرفها يوما في المسرحية حين كنا نستمع للكاسيت. بدأ العرض بخطى واثقة، الذاكرة تعود بنا دوما الى النص الذي حفظناه ورددناه. ورشة عمل لا تهدأ على المسرح، الجمهور مذهول مما يرى، اجواء المسرح توقظ الذاكرة النائمة، صوت الرصاص والانفجارات يطغى على صوت الممثلين. رنين الهاتف الذي لا يهدأ للإطمئنان عن فتاة جميلة تسكن في المنطقة الشرقية لبيروت. غريب يسرق الجرّة، تجتمع الضيعة لمعرفة السارق، الغريب مجهول الهوية، فَرِحٌ بها. نور يطلب من مهندس الصوت ان يصلحه، نور يطلب من مساعده ان يتصل بالممثل الغائب والاستفسار عنه، فرقة الرقص تتصارع آراؤها لتعدد انتماءاتها الطائفية واحتقانها من سيطرة طرف على الآخر، ابو الزلوف يظهر ليطلب من نور ان «يحل عنه»، عامل الاضاءة الغافل، الشرطي الذي يجوب المكان ذهاباً واياباً موزعاً ابتساماته، الممثلة التي تتذمر لعدم تشغيل مكيف الهواء، الارزة التي لم تكتمل فصول ولادتها. كل هذه المشاهد والتفاصيل برع الممثلون في تأديتها وقدموها في القالب نفسه الذي سمعناه، ما امتع الجمهور، فتفاعل معهم بشكل رائع. نجح المخرج في ادارة الممثلين وخاصة الادوار المحورية في العرض كنور والمختار والغريب وابو الزلوف. والواضح ان المخرج اخضع النص الاساسي للتشريح، ومنه نسج الصورة التي ظهرت على المسرح، فكما هو معلوم ان زياد الرحباني لم يكن يسجل مسرحياته، لذا تواجدت فقط على اشرطة كاسيت، ما صعب مهمة المخرج، وجعل خياله يتنزه في ارجاء النص المكتوب لمعرفة خفايا المسرح. وما ساعد في نجاح العرض التزام الممثلين في النص الاصلي، وحفظه عن ظهر قلب، فلم نلحظ اي هفوة او نسيان لفقرة ما، والظريف ان الجمهور كان يردد مع الممثلين النص فبدا الحضور وكأنهم مشاركون في التمثيل، الا انه من الضروري التوقف عند عدد من الشخصيات التي اداها الممثلون الشباب وخاصة دور نور (زياد الرحباني) ولعبه زياد مطرجي بتقنية عالية. فحاول قدر الامكان ان يقنع الجمهور بما يقدمه ونجح بذلك من خلال انفعالاته اللافتة والعفوية وانغماسه في اغوار الشخصية، وحركته الرشيقة على المسرح، وفهمه للدور المعطى اليه على انه شخصية محورية تدور كل الشخصيات الباقية في فلكها، فتميز في تقمص شخصية زياد وليس تقليدها، وخاطب الجمهور بلغة واضحة وتحكم بطبقات صوته فعرف اين يعلو ومتى ينخفض. صفق له الجمهور مطولا بعد انتهاء العرض. وهناك ايضا شخصية الغريب التي لعبها جمال ملاعب الذي اغرق الصالة ورفاقه الممثلون بموجات من الضحك، وذلك لسهولة ادائه وطرافته ولتعابير وجهه التي يتحكم بها فيفردها ويشدها، وساعده ايضا في ذلك بحة صوته التي اضفت على شخصية الغريب بعداً جمالياً. اما الست هند (سحر عساف) فلعبت دورها بحرفنة كما يقال ونجحت في ان تولد عند المشاهد النفور من الشخصية المستبدة المتعالية وغير المكترثة الا بجمالها وصورتها ومكياجها. وبرع المختار (اشرف مطاوع) في مقاربة الدور الذي اداه جوزيف صقر، فحاول ان يقلد نبرة الصوت وعذوبته وان يتكلم بالطريقة نفسهاالتي اعتمدها صقر في النص الاساسي. لم يكن هناك نقاط ضعف واضحة في المسرحية، وان وجدت فلا تذكر، فما فعلته فرقة ايحاء كان اقرب الى المستحيل، فحولت الاصوات التي كنا نسمعها تخرج من الراديو الى صور تتحرك على المسرح، وقد وفقت الفرقة ايضا في استعمال الموسيقى الخاصة بالمسرحية في مكانها ولولا ضعف الامكانات المادية لكانت سجلت الفرقة الموسيقى من جديد. الاضاءة ساعدت على ابراز الديكور المتواضع والذي يعكس ضعف الامكانيات، فلم يكن الديكور باهراً، بل خاضعا لنظرية «على قد بساطك مد قدميك». برعت الفرقة في اقناع الجمهور اذ انها لم تقلد بل حاولت ان تضفي روحها على المسرح كل على حدة. لكن ما يجب الحديث عنه هو الراحة التي شعر بها الجمهور وهو يشاهد العرض والتفاعل الفريد الذي قام به مع الفرقة، فلطالما صفق الجمهور مطولاً للعديد من الجمل التي وردت وفي نهاية العرض وقف اعجابا بالممثلين واستمر بالتصفيق لما يقارب العشر دقائق.

الفن من اجل التغيير

بعد انتهاء العرض إلتقت «شباب» مخرج المسرحية اياد وهبي الذي قال انه راض تماما عن العرض وهو فخور ان تعب عشرة اشهر لم يذهب سدى، بل استمتع الجمهور وخرج ضاحكاً متفائلاً، وعن اسباب إعادته للمسرحية قال «ان الاجواء والظروف لم تتغير في لبنان منذ ١٩٨٣ وما قاله زياد آنذاك، مازال يصلح لنقوله اليوم كفرقة شبابية تحاول ان تعيد الماضي ليس من اجل الاعادة، ولكن من اجل فهم وتفسير وتوضيح ما كان يريد ان يقوله زياد في الماضي». واعتبر وهبي ان زياد عبقري وصاحب مدرسة، ولو اننا استوعبنا ما كان يريد ان يقوله منذ زمن لما وصلنا الى ما نحن اليوم عليه ، واضاف انه لا يوجد ازمة نص اليوم، بل هناك ازمة استيعاب عند المتلقي، وهذا هو الفرق، كما علق ان نظرية الفن من اجل التغيير هي الاساس التي تتبعه الفرقة. وعن كيفية اختياره الممثلين قال ان تنقله في تعليم مادة المسرح بين المدارس أمّن له كما كبيرا من المواهب الفذة، ما ساعده على انتقاء ما يصلح للأدوار المطلوبة، واضاف ان الانتاج كان على حسابه الخاص ولم يتلق مساعدة مالية من احد، وحول عدم تغييره او تطويره هيكلية النص، اعتبر ان مسرح زياد خطير جدا ومن غير الممكن التلاعب به لان ذاكرة المشاهد قوية وتُحَاسِب، لذا من غير اللائق خداع الجمهور الكبير المتَعلق بزياد. واوضح ان اعادة عرض هو اصعب بكثير من عرض جديد، ولدى سؤالنا له في حال تم تعاون ما بينه وبين الرحباني اوضح ان التعاون «من بعيد لبعيد» وعبر وسيط فقط، فلم يتدخل في اي من الامور كما انه لم يشاهد حتى الآن، اي من العروض، الا ان الفرقة موعودة في ان يحضر ابو عاصي احد العروض في القريب العاجل. اما زياد مطرجي الذي لعب دور الرحباني وهو الدور الاكبر والمحوري في المسرحية، فاعتبر ان المسؤولية التي كانت ملقاة على عاتقه كبيرة ومخيفة، والتهاون غير وارد خاصة في شخصية يحفظها الجمهور عن ظهر قلب ويردد عباراتها في كل المناسبات وأضاف «تسلمت الشخصية قبل حوالي الشهر ونصف الشهر وذلك لسفر الممثل الاساسي، لذا كان علي ان ابذل مجهودا مضاعفا لأتملك الشخصية، فرافقتني ٢٤ على ٢٤ ساعة في حياتي العادية وبت اتكلم واعيش شخصية زياد، وهذا ما ساعدني أن اصل للجهوزية التامة قبل العرض». يذكر ان الفرقة تأسست في العام ١٩٩٩، واعادت مسرحة «بالنسبة لبكرا شو» في العام ٢٠٠٣ و«فيلم اميركي طويل» في العام ٢٠٠١ لزياد ايضاً. وقد لاقت المسرحيتان الضجة نفسها والرواج. شارك في العمل ثلاثون ممثلاً نذكر منهم بالاضافة الى من ذكروا سابقا: جوني الحاج (كريكور)، عمر زين الدين (ابو الزلوف)، ماهر الذيب (الشاويش)، اسامة عيد (مهيب)، جمال الاعور (عبد)، نزهة حرب (كوليت)، مكرم الحلواني (جوزيف)، رؤوف خليفة (علي)، لارا عودة (ايمان). بالاضافة الى فرقة رقص تتألف من احد عشر راقصاً تدربوا على يد اسامة عيد.